نشأة اللغة العربية ومصادرها

إبراهيم مركبات

اللغة العربية من اللغات السامية التي نشأت فيما نسميه الآن منطقة الشرق الاوسط وقد ظلت الآرا مضطربة في الاصل المشترك لهذه اللغات حتى الآن .

على أن المراكز الاولى التي ترعرعت فيها اللغة العربية بعد تبلورها هي على الخصوص اليمن والحجاز . أما في اليمن ، فكانت العربية أكثر اتصالا بالاكدية والحبشية من أي لغة أخرى (1) على أن الهجرات الجنوبية الى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر الى حد بعيد في هذه المناطق وأما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والنبطية والعبرانية وهكذا فان هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة للتفاهم وقرض الشعر ، هذه اللغة التي أمكنها أن تطغى على الحميرية الصرف .

وما من شك في أن هجرات اليمنيين الى الشام ، وعدم وجود وحدة حكومية عربية ، ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية لم يكن من شانه الا أن يوسع دائرة اللغة العربية بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد . اذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة دون أن يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها. واذا كنا نجهل متى نشأت العربية ، فمن المعلوم لدينا أنه قد مر قرن على الاقل قبل ظهور النبي ، وقبل أن تصل العربية الى درجة الاتقان (2) .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة وحدها كموطن لسكناهم ومعيشتهم ، بل انصرفت عناصر منهم الى البلدان المجاورة لشبه الجزيرة قبل الاسلام من طويل . ولما كانت هذه البلاد المجاورة نفسها موطنا لامم سابقة بينها وبين العرب صلة شديدة القوة كالانباط والاشوريين الكلدان ، فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد ، وكونوا في ظل الحكم الفارسي والروماني بعض الممالك التي اشتهر منها على الخصوص ، مملكة الحيرة التي ازدهرت في القرن 5 ق. م. ومملكة غسان التي ازدهرت في القرن 6 ق. م.

فلم يكن العرب والحالة هذه ، يعيشون كلهم منكمشين على أنفسهم في شبه الجزيرة ، بل كانت لهم علاقة وطيدة بمدنية الفرس والرومان . وهذا ينطبق بالخصوص على سكان الحجاز ، وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان ، أو على الاصح مع العراق والشام واحتكر التجارة منهم قريش خاصة ، لانهم كانوا يقطنون مكة التي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب .

والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد أو الامة التي لهم بها علاقة تجارية ، ومن ثم كان لا بد أن تدخل الفاظ كثيرة الى العربية من الفارسية والرومانية . وهذه الالفاظ لا بد أن تكون ذات صلة بالحضارة ما دام كل من الرومان والفرس في عداد الامم المتحضرة يومئذ ، بل أرقاها علما ومدنية .

---

1) حنا 1 ـ 21
2) لوبون 472

ولذلك استقبلت العربية الفاظا جديدة ومتعددة ، من بينها أسماء بعض الثياب والاواني مما أوردته عدة مصادر ، وعلى راسها القرآن .

ولغة العرب ظلت ترتبط في الجاهلية الى حد بعيد بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي الذي ان أنشأ شعرا أو أدبا ، فهو لا يتجاوز ذلك المحيط الضيق الذي عاش فيه ، ولا يحلق بعيدا في الاجواء الانسانية الا بقدر ما يرد منه ذلك عفوا ، كالذي نلاحظه في معلقة عمرو بن كلثوم .

ولكن الذي يثير انتباه الباحث ، هو ان كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة ، يمثل ثروة لغوية لا تقدر بثمن ، فكل أنواع الصحاري والاودية والحيوانات ، وكل أجزاء الدواب والنباتات وغيرها من الكائنات التي عرفها الجاهلي في محيطه ، استطاع بمنتهى اليسر أن يخلق لها اسما أو تعبيرا مناسبا ، وانك لواجد لبعض هذه الكائنات والمخلوقات وحتى المصنوعات اسماء عديدة تختلف في الغالب باختلاف لهجات القبائل ، كاسماء المعارك والاسد والسيف .

واذا كانت قريش زعيمة كل هذه القبائل من غير منازع ، طالما كانت تتولى أمور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز ، فان لهجتها استطاعت في النهاية أن تصهر كل هذه اللهجات لتخلق منها لهجة مشتركة ، هي التي نسميها اليوم اللغة العربية . فقد كانت يومئذ لهجة ، لانها لم تكن ذات علم مكتوب . ومع ذلك لم تكن لغة قريش بقادرة على أن تقضي كليا على تعدد المصطلحات لنفس المعنى أو المدلول ، ولئن كان هذا عيبا في الوقت الحاضر ، فانه كان شيئا عظيما يومئذ لانه مكن الشعراء ان يفسحوا لانفسهم المجال في اختيار الالفاظ على تعددها ، كما انتهينا بواسطته الى أن نميز بين بعض اللهجات القبلية . ومن الملاحظ أن كثيرا من القبائل كانت تنظر الى الجانب المهمل أو الغير المنظور في المدلولات فتحدث لها أسماء مخالفة (3) . فالسيف مثلا اسم اداة ، ولكن لفظ الحسام له دلالة غير مجرد اداة ، فهو يحسم أي يقطع وهذا نموذج لاختلاف اللهجات.

÷ × ÷

ولو أن الفرس أو الرومان احتلوا شبه الجزيرة ، وطال احتلالهم لها ، لربما كان للغة العربية في الجاهلية مصير آخر فالمغلوب كما يقرر ابن خلدون يقلد دائما لغة الغالب ، ولكن العربية اكتسفت منذ العهد العباسي باقتباس عدد من الالفاظ الفارسية واليونانية التي شملت العلوم وجوانب أخرى من الحضارة لم يكن للعرب بها عهد في الجاهلية ، ولم يضر هذا الاقتباس اللغة العربية بحال ، لانه اقتباس علمي وحضاري وليس اقتباسا سياسيا اجباريا .

وكانت هناك بعض الميزات التي اختصت بها لهجات العرب غير قريش. وكان هؤلاء يحتكون بهم اثناء مواسم الحج ، فما استحسنوه من لهجاتهم تكلموا به وما استقبحوه تركوه. وكان ضمن ما أخذ على هذه اللهجات من عيوب (4) :

1 ـ الكشكشة وهي زيادة شين بعد كاف خطاب المؤنث (عليك ، عليكش).

2 ـ الفحفحة في لغة هذيل ، وهي جعل الحاء عينا .

3 ـ الشنشنة في لغة يمنية ، وهي جعل الكاف شينا في جميع الحالات .

4 ـ العنعنة في بعض لهجات قيس وتميم ، وهي جعل الهمزة في اول الكلمة عينا مثل اكرم (عكرم) .

ومقابل ذلك نجد الفاظا كثيرة دخلت العربية منذ العصر الجاهلي عن لغات مختلفة ترتبط اقتصاديا وسياسيا بحياة العرب أنفسهم . ومن هذه الالفاظ (5) :

1) في السنسكريتية : كافور ـ قرنفل ـ بهاء .

---

3) لوبون ص 9

4) المزهر 1 ص 221

5) تاريخ آداب اللغة العربية 1 ص 44 ـ 46 والمزهر 1 ص 275

2) في الفارسيـة : ديـباج ـ فالوذج ـ زنجبيل ـ صندل ـ سكرجة ـ طست ـ ابريق ـ طبق ـ خوان ـ سندس ـ سميذ ـ كوز ـ نرجس ـ وبعـض الالـفاظ الفارسية نجده واردا في القرآن الـكريم (ابريق زرابي سندس استبرق.)

3) في العبرانية : حج ـ كاهن ـ عاشوراء ـ بيت .

4) في اليونانية : اسطرلاب ـ بطـريـق بطاقـة ـ قسطل ـ ترياق .

5) في الحبشية : منبر ـ حواري ـ برهان ـ كفلين ـ مشكاة ـ هرج ـ والثلاثة الاولى من استنتـاج السيـد جرجي زيدان (6) .

فالعربـية اذا ، اعتنت بالـفاظ كثيرة منـذ العصر الجـاهلي ولـكنها ازدادت غنى في العصر العـباسي كما هو معلوم .

ولم تكن ألفاظ الكلام العادي وحدها مصدرا لدراسـة اللغة وتدوينها بل كانت منـاك مصادر أساسيـة أخرى لعلها أهم ، وهي القرآن والشعر والامثال والقصص .

فاما القرآن ففضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا في التفكير العربي في جميـع مناحي الحيـاة ، فـقد كان مصدرا عظيما للغة التي أغـناها بمصطـلحات كثيرة أو باسلوب جديد على الاصح وكثير من هذه المصطلحات او الاسلوب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين كالزكاة والميراث والصلاة والايمان ومشتقاته .

وكان النبي يقدم هذا الاسلوب المنزل عليه في صورة وحي ، كاخبار أو جواب عن أسئـلة يثـيرها العرب : (يسألونك عن الاهلة ـ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ـ ويسألونـك ماذا ينفقـون ـ يتساءلون عن النبـا العظيم ...الخ.)

واذ اتسم الدين بمنتهى البساطة في عـهد النبي ، فلم تثر اسئلة كثيرة لتاويل عـدد من نصوص القرآن . فكان على الصحاب ان ياخذوا على انفسهم ثقل هـذه المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهـم كعكرمة وابن عباس اللذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي أثارها المستفسرون .

وأثار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهـور عـدة روايات تنوقلت عن جماعـة معينـة من القراء واحتفت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات لا بجوهر اللفظ نفسه .

ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج ، وقد حفظ عددا من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الاسلـوب العربي (ان هذان لساحران ـ قـال رب ارجعون ـ والارض فرشناهـا ـ فقد صغت قلوبكما ـ (والمقصود قلبان فقط) قال رب ارجعون الخ ..

وكل هـذه الاستعمالات وغيرهـا كان يستشهد بـه للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة من حيث اعتباره كمرجع في اللغة لان أحـاديث كثيرة ضعفت او نسبت كذبا الى النبي. وكان لنشاة المذاهب الدينية والسياسية المختلفة ، أثرها في خلق أحاديث لم تثبت صحة نسبتها للنبـي ، ومن ثـم ، اجتنب نقلة اللغـة ورواتها الاخـذ بالحديث فيما يهم الاستشهاد بصحيـح اللغـة وتبـيان السالم منها والفاسد .

ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهـورة وردت قصـدا او ضمنا في أحاديث النبي حتى قيـل انها لـم تسمع عن غيره من قبل ، ومنها (7) مـات حتف أنفه ـ الحـرب

---

6) مصدر سابق ص 45

7) مزهر 1 ص 302 ويرى بشر فارس فـي «مباحث عربية» ان الحديث : بعثت لأتمم مكارم الاخلاق على الرغم من شهرته ، فهو غير مقطوع بصحته ، واستند في ذ. الى « الموطأ »الذي أورده بنص بعثت لأتمم حسن الاخلاق. واذا فالرواة لم يعتمدوا على الحديث لمثل هذا السبب

خدعة ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ولكنها اصبحت جارية الاستعمال فيما بعد .

واما الشعر فمصدر بالغ الاهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وهـذا حـكم صحيح الى حد كبير .

وانما ظل الشعر مصدر اللغة لسهولة حفظه وروايته، ولانه لايحتمل المكذوب والمدسوس مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابـة في وقت متاخر نسبيا كابى تمام (الحماسة) والاصبهانى (الاغانى).

والذين تصدوا من جماع مواد اللغة للتاليف في هذا البـاب عـمدوا الى الاستشهـاد بالشعـر كـما فعـل النحاة ايضا .

وهكذا استشهدوا بالشطر التـالي على ان (عزب) تطلق على الذكر والانثى :

يا من يدل عزبا على عـزب

واستشهدوا فى اخضاع الاسماء العجمية لابنية كلام العرب بقول الاعشى :

وكسرى شهنشـاه الـذي سار مـلـكه
لـه مـا أشتـهى راح عـتـيق وزنبـق

وشهنشاه ، اختصار لـ (شاهان شاه) (8) .

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظـة التـثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يا بن عفـان انزجر
وان تـدعـاني احـم عرضا ممنعـا

وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عبـاس يقول : اذا قرأتم شيئا من كتاب الله لـم تعرفوه فاطـلبوه في أشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .

واما الامثال فتعتبر كذلك من مصادر اللغة ، وللعرب منها الشيء الـكثير ، وهي ذات أهمية بالغـة من حيث ارتباطها اجتماعيا وأدبيا بحيـاة العرب . كما ان كثيرا منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الامم والافراد ، كقولهم : (الحرب خدعة ، ومعظم النار من مستصغـر الشرر ، ولا يطاع لقصير أمر) وقد أخذت كثير من دول اروبا عددا من الامثال عن العرب (9) .

على ان وراء كل مثل قصة حفظت كتب الامثال كثيرا منها ، وخصوصا ، مجمع الامثال للميداني (518 هـ.)

والقصص تمثل بدورها نمـاذج صادقـة من تفكيـر العرب وآدابهم ، وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ وجمـال الاسلوب وأحسن مرجع لهـا هو كتاب الاغانى والبيان والتبيين للجاحظ والامالى للقالى .

وموجز القول أن القرآن والشعر والامثـال والقصص قد أدت دورا بارزا في حفظ اللغة وتقويمها . الا ان وقتا طويلا قد مر على المفكرين والباحثين قبل أن يهتدوا الى الخطر الذي أصبح يهدد اللغـة بعـد فشو اللحن فيـها بسبب الاختلاط بالاعاجم ، وبعد العرب عن شبه الجزيرة التي نشأت فيها لغتهم .

ولست موردا هنا نماذج للاخطـاء اللغويـة والنحوية التي تفشت على السنة العرب في زمن مبـكر من صدر الاسلام ، فهذه النماذج ترددهـا مصادر كثيرة كالعقـد الفريد والمزهر ، وسأورد بعضها فيما بعد .

الا أن الذى ينبغى تسجيله هنا هو أن جميع الدراسات اللغوية انما كان سبب نشأتها ونموها القرآن قبل غيره.

ذلك ان الفاظا كثيرة يرددها القرآن كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول . وكان بين هذه الالفاظ ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه قبل الاقدام على التأويـل الشرعي فنشأ عن ذلـك العنايـة بتفسير القرآن واختلفت الروايات في قراءة القرآن فنشأ عن ذلك علـم القراءات الـتي كانت ذات ارتبـاط وثيق بالنحو . وأخيرا فان وضع قواعد النحو كان ضروريـا

---

8) مزهر 1 ـ 293 و (2) 484
9) لوبون ج 1 ص 484

لحفظ آيات القرآن على صورتها الاصلية وبقطع النظر عن تعدد القراءات .

ولحسن الحظ فقد كان العرب يفطنون الى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الاشياء التى يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلا . وقد بداوا في ذلك منذ ايام ابي بكر وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة . بل يمكن أن يفهم من تعنيم أسرى مكة لصبيان المدينة اثر وقعة بدر ، أن الكتابة كانت تنتشر بمكة التي عرفتها قبل المدينة (10) ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرآن قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة في باقي اجزاء شبه الجزيرة ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة ، ولقد كانت لغة الشعر كما يقول بروكلمان (11) اشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العين نفسه .

واذا كان للقرآن فضل في انتشار العربية بشكل لم تكد تعرفه لغة أخرى فى العالم (12) فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسو اللغة الاولون قد ادت بدورها خدمة لا تنكر للعربية .

ولقد ظلت اللغة العربية على متانتها في عهد النبي على الخصوص وفي ايام الراشدين بوجه عام . وما سجل من الهفوات على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى ما بلغته العربية من فوضى فيما بعد. بل نلاحظ ان السود الذين دخلوا في الاسلام منذ الجاهلية وعهد النبي انسجموا بسهولة مع النطق العربي السليم كعنترة ذى الام الافريقية ، وبلال الحبشى ، وصهيب الذى اختطفه الروم صغيرا . بيد أن عدد هؤلاء كان قليلا لم يؤثر في سلامة اللسان العربي .

ولا ننس بعد هذا ان عددا كبيرا من الفاظ الجاهلية قد أهمل استعماله ابتداء من صدر الاسلام ، ثم فيما بعد. وهكذا فقد كانت اسماء الايام في الجاهلية هي : السبت : يشيار ، الاحد أول الاثنين : أهون واهود ، الثلاثاء : جبار ، الاربعاء : دبار ، الخميس : مؤنس ، الجمعة : عروبة ، كما أهمل قولهم حببت فهو محبوب ، وترك : مضنى وبقي امضنى (13) الخ ..

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال فى تحقيق اللغة وتمييز صحيحها من فاسدها وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم في هذا الميدان ، الا أن مؤلفاتهم على العموم لم يتح لها تاثير كبير من حيث الذيوع والانتشار .

ابراهيم حركات

(10 Essai sur l'origine de l'écriture (P. 10)
(11 P. de Linguistique, page 40
(12 P. de Linguistique, page 41
13) المزهر 1 ـ 218